

الصليب والصلب قبل الميلاد وبعده

الأب سامي حلاق اليسوعي^٥

مقدمة

إتخذ المسيحيون الصليب رمزًا لهم منذ القرن الرابع الميلاديّ حتى أيامنا. فهم يضمونه في بيوتهم وكنائسهم وأماكن عملهم، ويعلقونه على صدرهم وثيابهم، ويحفرونه في بعض الأحيان على أدواتهم. وقد لاقى هذا الشكل الهندسي، الناتج عن تقاطع خطين مستقيمين تقاطعًا عموديًا، رواجًا واسع الانتشار في العالم المسيحي، وظهرت له أنماط لها مدلولات لا تُعدّ ولا تُحصى. فيه تميّزت الجماعات الرهبانية بعضها عن بعض، وكذلك المنظمات المسيحية والجمعيات. وفي العالم السياسي، وضع الملوك المسيحيون والأحزاب صلبانهم على راياتهم، مع أنّ سلوكهم في بعض الأحيان يُخالف تعاليم الإيمان المسيحي مخالفة جذرية. فما هي علاقة المسيحية بالصليب؟

يروى لنا التاريخ أنّ الحاكم الروماني بنطيوس بيلاطس صلب، أمام أحد أبواب أورشليم، يهوديًا جليليًا من الناصرة اسمه يسوع. إنها ليست أوّل مرّة تصلب فيها السلطات الرومانية رجلًا حُكِمَ عليه بالإعدام، خصوصًا في اليهودية، أكثر الأقاليم اضطرابًا في تلك الأيام. لكنّ ذكرى

(٥) كُتِبَ الفلقة واللامرت اليسرعة - باريس.

المصلوبين زالت بعد مدّة، على خلاف ذكرى ذلك الجليلي. فقد كان نبيًا على ما يدور، وبعد موته، بشر تلاميذه به في جميع أنحاء المعمورة، وأعلنوا أنه المسيح ابن الله. وسُمّي الذين سمعوا تعاليمهم واعتقوها مسيحيين. وازداد عدد هؤلاء، وانتشروا في جميع أقطار العالم، وكان لهم دور فعال في مسيرة التاريخ.

ارتبطت المسيحية منذ بدايتها ارتباطًا وثيقًا بصلب المؤسس. فهو في نظرهم حدث مركزي. واعتبر بعضهم أنّ حياة الناصري تفقد معناها بدون الصليب. وبالغ آخرون في الكلام فأعلنوا أنّ ابن الله تجسّد لكي يُصلب. وأكدت تيارات تقوية أنّ ما من إنسان في تاريخ العالم، ماضيه وحاضره، تألّم جدّيًا أكثر ممّا تألّم يسوع على الصليب. فهل ما يقوله هؤلاء صحيح؟ ما هي قصّة الصلب وتاريخه؟ ولماذا وصف القديس بولس صلب المسيح بأنه «عار وجنون» (١ قور ١ : ١٨-٢٣)؟ ولماذا انتظر المسيحيون ثلاثة قرون ليجعلوا الصليب شعارًا لهم؟

تاريخ الصلب

يقرّ علماء التاريخ اليوم بأنّ الصلب اختراع فارسيّ. لكنهم يجهلون تاريخ ظهوره و زمن انتشاره بين الحضارات الأخرى. كان الصليب في البداية قائمًا عموديًا كجذع الشجرة. وقد ورد ذكره في سفر تشية الاشرع بالعهد القديم (تث ٢١ : ٢٣)، وترجمه القديس هيرونيّمس بكلمة صليب Crux. واحتفظت اللغة اليونانية بكلمة قائم Stauros لتشير بها إلى الصليب. وأضيف في ما بعد إلى القائم الشاؤوليّ آخرُ أفقيّ أو عارضة، وصار يُنبَت المحكوم عليهم إليها بواسطة الماسير أو الحبال، ويُتركون على هذا النحو حتّى يموتون. كان الصليب منخفضًا، ولا يُصلب عاليًا إلاّ مرتكبو الجرائم الفظيعة ليكونوا عبرة لئن يعتبر.

اختلفت أشكال الصلبان كثيرًا: فهناك الصليب ذو الأطراف الثلاثة Crux commissa الذي يشبه الحرف T اليونانيّ، والصليب ذو الأطراف

الأربعة الذي سُمي *Immissa* أو *Capitata* حيث يعلو طرف القائم العمودي العارضة الأفقية^(١)، وهو شكل صليب المسيح كما ورد في تقليد الكنيسة، وعلى الجزء العلوي البارز علق الجنود سب الإعدام (متى ٢٧ : ٣٧). ويقول القديس إيريناوس إنَّ صليب المسيح له أربعة أطراف: إثنان في الطول وإثنان في العرض. ويُضيف أنَّ هناك أيضًا طرفًا خامسًا لقطعة خشية جلس المخلص عليها^(٢). وهي وضعية ضرورية لكي لا يُمزق ثقلُ الجسم اليدين المستمرتين على عارضة الصليب الأفقية، ولكي يتمكَّن المحكوم عليه من التوازن.

بالإضافة إلى تنوع أشكال الصليب، اختلفت طرق الصلب لا من مدينة إلى أخرى وحسب، بل من إعدام إلى آخر. ممَّا يجعل عمليَّة التصنيف أمرًا مستحيلًا. ومع ذلك، ميَّز هيرودوتس *Hérodote* نوعين من الصلب. فاستعمل للأوَّل فعل *Anaskolopizein* ليشير إلى صلب الإنسان حيًّا، وللثاني فعل *Anastaurouin* ليشير إلى تعليق جثة قتيل على الصليب. في كلتا الحالتين، تبقى الغاية نفسها: أن تتال الضحية أشدَّ أنواع الإهانة. لذلك تُبِتَّ على الصليب بالمسامير أو الحبال، وتُترك لتموت ببطء إن كانت حيَّة، أو تُقدَّم طعامًا للطيور إن كانت ميتة. وقد أُرهبَت هذه الطريقة في الإعدام القدماء فامتعروا عن الكلام عليها بالتفصيل، ممَّا يصعب علينا معرفة طرق الصلب. فقد وصف هيرودوتس موت بوليفراطس الساموزي *Polycrate de Samos* وقال: «قُتل بطريقة لا يمكن قولها، وتُبِتَّ جثته على خشية»^(٣). ويصف في مكان آخر، ويتفصيل أكثر، إعدام *Ksanhippe* القائد الأثيني، الذي أُبِم بتدنيس المقدسات. فيقول: «سَمَرُوهُ على ألواح خشية وعلقوه، ورجموا ابنه أمام عينه»^(٤).

بعد هيرودوتس، صارت الكلمتان *Anaskolopizein* و *(Aaa)staurouin*

(١) H. Marruchi, *Dictionnaire de la Bible*, t. II, col. 1128.

(٢) *Ibid*, t. II, col. 1130.

(٣) *Hérodote, Histoire*, 3, 125,3.

(٤) *Ibid*, 9, 120,4.

أفلاطون على سقراط، وضع على لسان بولس Polos وصفًا مفضلًا
للتعذيب قبل الصلب، لكي يتقد رأي سقراط الذي يعتبر الحاكم الطاغوي
أشدّ بؤسًا من الذي يموت بالتعذيب:

«حين يتأمر إنسان بدون حقّ على طاغية، فيُلقي القبض عليه وتُسلم
للتعذيب، فتُتبر أطرافه، وتُحرق عيناه، ويتألم من العذابات الشخصية
الروحانية والمتنوعة فيشهد إذلال أبنائه وزوجته، وفي آخر الأمر يُصلب أو
يُدهن بالزفت ليُحرق حيًّا، أيكون هذا الرجل أسعد ممّا لو نجح في
الفرار، وتسلم السلطة وطفى، وأمضى حياته يحكم المدينة ويفعل فيها ما
يشاء، ويحده على ذلك المواطنين والغرباء الذين يهتفون لسعادته؟»^(٧).

وسخر كثيرون من سقراط لأفكاره في هذا الموضوع. مَنْ يعتبر نفسه
سعيدًا في هذه العذابات الرهيبة؟ وَمَنْ يتمنى طول الحياة مع هذه الآلام؟
هذا هو تفكير الرومانيين. فالانتحار في نظرهم أمر بشع، لكنّه حكمة
ونصيحة لمن يريد تفادي الصلب. ولم يقبل ميسين Mécène بهذا الرأي،
ورفض اعتبار الانتحار آخر ملجأ للحفاظ على الحرّية حين يتعرّض المرء
إلى آلام لا فائدة منها. فسخر منه سينيكا وقال:

«أهناك إنسان يحبّ أن ينهار تحت وطأة العذابات، ونفى أعضائه
الواحد تلو الآخر، وتهدّر حياته قطرة قطرة، بدل أن تلاشى دفعة واحدة؟
مَنْ الذي يُعلّق على المشقة الملعونة، وقد أُعيت وشوّد وتحوّل كنفاء
وصدره إلى حديتين بشعتين، ويكون لديه ألف سبب للموت حتى قبل
الصلب، ويتمنى أن يمدّ وجوده الذي سيُطيل من آلامه؟»^(٨).

تبيّن لنا هذه النصوص وسواها أنّ الصلب موت رهيب لأنّه بطيء،
ولأنّ سلسلة طويلة من العذابات تسبقه. ومع ذلك، فإنّ التعذيب بعدًا
إيجابيًا. فهو يرهق جسد الضحية، ويفقدها في بعض الأحيان دمًا كثيرًا،
خصوصًا في الجلد. وأخيرًا، بما أنّ المحكوم عليه يحمل غالبًا صليبه إلى

Gorias, 474 bc. (٧)

Dialogue, 3 (De ira I), 2, 2. (٨)

مكان الإعدام، فإنه يصل منها، ويموت سريعًا.

الجدال حول الصلب

وصف شيشرون الصلب على أنه ذروة التعذيب *Summum supplicium*. ووضعه يوليوس بولس *Julius Paulus* - القرن الثالث قبل الميلاد - في أوّل قائمة العذابات، يتبعه الحرق ثم قطع الرأس. وكان يُستعاض في بعض الأحيان عن قطع الرأس بالرمي إلى الوحوش، إذا تمّ الإعدام في زمن أعياد الترفيه، وفي مدينة تحوي حلبة وجميع التجهيزات الضرورية لذلك. ويتمّ الإعدام عادة أمام الشعب، لأنه مشهد يسلي الناس على الرغم من بشاعته. ويقال إنّ في عهد الإمبراطور كاليغولا *Caligula* (٣٧-٤١ ميلادية)، تناولت مسرحيات كثيرة موضوع الإعدام. وفي عهد دوميتيانوس *Domitian*، كان يقوم بدور الضحية مجرم حقيقي. فقد مثل لورويولس *Laureolus*، وهو رئيس عصابة وعبد فاس، مسرحية موته، وُصّب في آخرها، ومزّق دُبّ إسكوتلنديّ جسد^(٩).

كانت مشاعر الرومانيين تختلط أمام الصليب بعضها ببعض: عنف وقرص ورحمة وتسلية. ولم تعصب السلطات الرومانية الناس عشوائيًا، لكنّ عدد المصلوبين في كلّ سنة كان كبيرًا جدًا. ولم يحتج الشعب على بشاعة هذه الطريقة في الإعدام، لأنها في نظرهم تردع عن مخالفة القانون، وتُرضي في بعض الأحيان أهالي ضحايا المجرم المحكوم عليه. ووصف شيشرون الصلب بـ «الطاعون»، واعترض مرتين على صلب مواطنين رومانيين، لكنّه انتقد فيرّيس *Verrès* لأنه أعاد عددًا كبيرًا من العبيد المتّهمين بالمؤامرة إلى أسيادهم بدل أن يصلبهم. وقال في هذا الشأن: «هؤلاء العبيد الذين سلّموا ليعدّبتوا وفقًا لعادة الأجداد، تجرّأت على انتزاعهم من برائن الموت وإطلاق سراحهم. لا بدّ أنّك فعلت ذلك لتخصّص للمواطنين الرومانيين، الذين عوقبوا بدون محاكمة، الصلبان

Martial, *Liber spectaculorum*, 7. (٩)

التي نصبتها للعبيد المحكوم عليهم^(١٠). وليس موقف سينيكا الرواقية أفضل من شيشرون. فهو يقول إنّ الصليب أسوأ أنواع التعذيب. لكنّه يعتبر صلب المجرمين أمراً طبيعياً: «وحتى حين يجب مدح الدولة التي لا يُعاقب الناس فيها إلا نادراً، علينا ألاّ نتخلّى نهائياً عن العقوبات القاسية»^(١١).

الصلب في القوانين الرومانية

لا تعاقب القوانين الرومانية بالصلب إلاّ العبيد والغريباء. ولا يستوجب المواطنون الرومانيون هذا العقاب إلاّ في حالات معينة: الجرائم الكبيرة في السرقة وقطع الطرق، أو الخيانة العظمى. ففي هاتين الحالتين، يفقد المواطن حقوقه المدنية، وبالتالي الحماية التي يتمتع بها، فيصير عرضة لأسوأ أنواع الإهانة أيّ الصليب. يقول شيشرون في هذا الشأن: «لو هدّدونا بالموت، قلّنا أنّنا أحراراً على الأقلّ. أجل، فليتعدّ الجلاد والحجاب على الرأس وحتى ذكر الصليب، لا عن الرومانيين وحسب، بل عن أنكارهم وعيونهم وأذانهم. لأنّ في هذه العذابات، ليست مسألة الإعدام هي التي لا تليق بمواطن روماني ويانسان حرّ، بل طبيعتها والانتظار فيها وحتى اسمها»^(١٢).

تُظهر لنا أحكام يوليوس بولس Julius Paulus تطوّر قوانين الإمبراطورية. فقائمة الجرائم التي تستوجب العقوبة القسوى تطوّرت، وصار يُعاقب بالصلب الفرائد أمام العدو، الخيانة بإفشاء أسرار الدولة، التحريض على الثورة، القتل، السحر، تزوير وصيّة مهمّة. . . ولم يُحكم بالصلب إلاّ أبناء الطبقة السفلى، إذ يمكن لأبناء الطبقة العليا أن يطلبوا طرّقاً في الإعدام أكثر إنسانية. ومع ذلك، ظلّ الصلب وسيلة إعدام العبيد، حتى إنّ القدماء تعودوا أن يكتبوا عبارة: «عذاب العبد» «Servile»

In Verrem II, 5, 162. (١٠)

Dialogue, 5, (*De clementia*), 1, 23. (١١)

Cicéron, *Pro Rabirio*, chap. 16. (١٢)

«supplicium»، حين يتكلمون على صلب مواطن حرّ. وهذا يكفي لجعل الصليب أداة عار. فالعبد ليس إنساناً فَقَدْ حرّته، بل أداة يتلّى بها السيّد كما يحلوه. وكان الصليب كابوس العيد اليوميّ لأنّ من حقّ أسيادهم أن يصلبهم لأنّهم لا تفتق الأسباب ويدون محاكمة. لهذا سمّى بعضهم العيد: «القابليين الصلب Cruciani». يُضاف إلى ذلك أنّه كان يُصلب عيد السيّد الَّذِي يُغتال ولا يُعرف قاتله.

صلب المسيح عار وجنون

رأينا أعلاه كيف كان اليهود الوثنيون يعتبرون الصلب أكثر طرق الإعدام إهانة، وكيف كان يثير في نفوسهم شعوراً بالنفور والقرع والخوف. وقد شعر تلاميذ يسوع بذلك حين صُلب معلمهم، فحزنوا وخافوا واختبأوا خجلاً، لأنّ ابن داود، مسيح الله، المحرّر الذي دخل أورشليم بعظمة منذ بضعة أيّام، صُلب أمام عيون الجميع صلب المجرم أو الخائن أو العبد. لقد ترك الله قديسه يُسعر إلى خشبة على هضبة الجلجثة، بينما كان أتباعه يأملون أن «يحرّر إسرائيل» (لوقا ٢٤ : ٢١). لم يكن موت الأبطال أو القوّاد أمراً غريباً في ذلك الوقت: فأخيلوس وسقراط ورومولوس وشمشوم وغيرهم قُتلوا، وتوارثت الأجيال سيرهم ورتبها بطريقة ملحمة. لكنّ هؤلاء ماتوا مته بطولته، ولم يخضع أيّ منهم لذلك الصلب. وهنا تكمن عشرة الصليب، التي لم تستطع ظهورات المسيح القائم من بين الأموات أن تزيلها. لكنّ الأمور تغيّرت بعد العنصرة. فقد أنيرت العقول، وصارت ترى في موت يسوع معنى آخر. لذلك أعلن القديس بطرس للجمع أنّ الربّ لم يترك ابنه، بل جعل يسوع الذي صلبته سيّداً ومسيحاً (أعمال الرسل ٢ : ٣٦). ويُضيف القديس بولس إلى ذلك فيقول إنّ مأساة الصلب ليست حدثاً محزناً بل عملاً خلاصياً: «لأنّ الذين يُصلبون المسيح يسوع يصلبون الجسد مع شهواته» (غلاطية ٥ : ٢٤). ومع ذلك، لم ينسّ رسول الأمم أنّ الصليب «عارٌ لليهود وجنون للوثنيين» (١ قور ١ : ٢٣).

ودافع آباء الكنيسة طوال ثلاثة قرون على الأقل عن صلب المسيح في جدالاتهم مع اليهود الوثنيين، وفي بعض الأحيان مع المسيحيين أنفسهم. ففي القرن الثاني مثلاً، علّم بازيليدوس Basilide عقيدته في الأيونات éons بالإسكندرية. وهي تنصّ على أنّ يسوع لا يساوي الله لأنه أيون من العالم الوسيط بين الألوهية والبشرية، نزل من كولاكر Caulacau، إحدى السمرات الـ ٣٦٥ الكونية، وُود من العذراء مريم، ونال في أثناء معموديته نور الإنجيل الذي يخلص. وبفضل هذا النور أعلن المعرفة وأعاد نظام بداية الخليقة. فالغداء يتمّ إذا بمعرفة الوحي الإلهي معرفةً داخلية. وفي الطريق إلى الجلجثة، «خرج يسوع عن جسده الشبهي وألقى شكله على سمعان القيريني الذي ساعده في حمل صليبه. وعادت كلمة الله إلى السماء، وصُلب سمعان مكانها»^(١٣). فالغنوصيون البازيلديون لا يقبلون بأنّ اليهود صلبوا كلمة الله المتجسد، ويقولون إنّه شُبّه لهم ذلك.

الصليب والصلب قبل الملك قسطنطين

استعمل المسيحيون إشارة الصليب منذ القرن الأول الميلادي^(١٤) ففي أحد التصوص القديمة لثيرتليانس نجد أنّه يوصي بها في كلّ زمان ومكان: «في جميع أعمالنا، حين ندخل أو نخرج، حين نلبس، أو نذهب إلى الحمامات، أو نجلس إلى المائدة، أو نستلقي على السرير، أو نأخذ كرسيًا أو مصباحًا، نرسم إشارة الصليب على جباهنا. لم تأمر الكتب المقدسة بممارسة هذه العادة، لكنّ التقليد يعلمها، والعادة تثبتّها، والإيمان يحفظها»^(١٥). لكنّ المسيحيين لم يرسموا الصليب في لوحاتهم

(١٣) G. Bareille, *Dictionnaire de Théologie Catholique (D.T.C.)*, t. II, col. 471. (١٤) تقصد بكلمة «إشارة الصليب» الحركة التي يقوم بها المسيحيون في صلاتهم، فهم يفلون يدهم من الجبين إلى الصدر ثمّ إلى الكتفين وهم يقولون: «باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين». وقد أضيفت العبارة الأخيرة، أي الإله الواحد، إلى إشارة الصليب في اللغة العربية لكي لا يظنّ المسلمون أنّ المسيحيين مشركون.

De corona militis, cité par H. Quilliet, *D.T.C.*, t. III, col. 2348. (١٥)

ولم يمثلوه في منقوشاتهم حتى السلام القسطنطيني، لعدة أسباب نذكر أهم ثلاثة منها:

١ - عندما احترقت روما في عهد نيرون في السنة ٦٤، أتهم المسيحيون بإشعال الحريق، فلوحقوا واعتُقلوا وحُكِم عليهم بأشد أنواع العذابات. لذلك خافوا. وجعلوا يتروخون الحذر ويعشون خفية، ويمارسون إيمانهم سرًا. وأدت هذه الحياة الخفية إلى الإكثار من استعمال الرموز والإشارات التي لا يفهمها إلا المسيحيون. فعلى سبيل المثال، انتشر في ذلك الوقت استخدام رمز السمكة كتابة ورمسًا^(١٦)، وكذلك المرسة رمز الإيمان الثابت والرجاء وسط عواصف الحياة، والراعي والحمامة... (شكل ١ - أطلب آخر المقال).

٢ - ظل الصليب في فكر المسيحيين أداة عار. فإيمانهم باله مصلوب أثار سخريّة الوثنيين. وخير دليل على ذلك كتابة من القرن الثالث الميلاديّ معروفة باسم: «المصلوب ذو رأس الحمار» (شكل ٢)، اكتُشفت في قصر البلاتينو بإيطاليا، وفيها رسم لشخص له رأس حمار، معلق على صليب بشكل حرف T، وينظر إلى شخص آخر بالقرب منه، يده اليمنى مرفوعة في وضعية التضرع القديمة. وتحت الرسم عبارة: «أليكسانوس يعبد إلهه ALEXAMENOC CEBE TE ΘEON»، واكتُشفت في القصر نفسه كتابة أخرى: «ALEXAMENOC FIDELIS». ولما كانت كلمة FIDELIS لا تُقال إلا للمسيحيين، تمّ الجزم على أنّ الرسم الأوّل يعني المسيحية لا اليهود ولا عبادة الإله سيت المصري.

٣ - عُرف شكل الصليب الهندسي قبل المسيحية. فنحن نجده في الحليّ والأفراط (شكل ٣) وحتى في الأحرف الأبجدية كما هو حال الكتابة البيروغليفيّة. واستعمله الغنوصيون في رموزهم الفلكية وكتاباتهم السحرية (شكل ٤). وربما استعمال الوثنيين شكل الصليب الهندسي أعاق

(١٦) راجع مقالاً رمز السمكة عند المسيحيين، المشرق، تموز ١٩٩٤، صفحة ٤٤٩-٤٦٨.

المسيحيين في استخدامه رمزًا لهم، لكي يصورتوا حديثي الإيمان من
المودة إلى الوثنية.

الأصول الثلاثة

على الرغم من عدم استعمال الصليب رمزًا للمسيحيين طوال القرون
الثلاثة الأولى، نلاحظ في هذه المدة وجود بذار ستعطي ثمرًا في عهد
الملك قسطنطين، الذي أنهى اضطهاد الكنيسة. فبالاعتماد على التنقيحات
الأثرية يمكننا تمييز ثلاثة أصول لرمز الصليب.

١ - حروف الاختصار Anagramas: ورد في قاموس العاديات
والليتورجيا المسيحية *Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie*
أن المباني المسيحية الأولى حوت في بعض الأحيان الحرف X إشارة إلى
الحرف الأول في اسم المسيح باليونانية *Xristos*، أو الحرفين X و I
مدموجين (شكل ٥) وهما أول حرفي عبارة يسوع المسيح باليونانية
Iesus Xristos. وفي بعض الأحيان أطيل الحرف I فأعطى شكلًا يشابه
الصليب (شكل ٦). وكثيرًا ما نجد في آثار المسيحيين صليبًا يتج عن
تطابق أول حرفين في اسم المسيح باليونانية وهما *XP* (شكل ٧)، سُمي
صليب القديس أندراوس، لأن التقليد يقول إن هذا القديس صُلب على
هذا النحو. على كل حال، لم تُشر هذه الرموز في البداية إلى الصليب بل
إلى المسيح نفسه.

٢ - الحرف T: وهو حرف يوناني يذُكر بـ *tau* في الجيوش وعلامات
الانتصار. ورد في حديث يرقى صاحبه إلى القرن الثاني: «صليب الحرف
T يعني النعمة»^(١٧). وقد أشار عدد من آباء الكنيسة إلى العلاقة بين هذا
الحرف وصليب يسوع. ونحن نجده بكثرة في دياميس القرن الثاني
الميلادي (شكل ٨).

P. Thoby, *Le crucifix des origines au Concile de Trente*, Bellanger, Nantes, (١٧)
1959, p. 13.

٣ - العرساة: رمز مسيحيّ يعني الرجاء وثبات الإيمان في المحن. لقد تطوّر رسم العرساة المسيحيّ حتّى صارت في بداية القرن الثالث تشبه الصليب (شكل ٩). ووضع في بعض الأحيان سمكة عليها إشارة إلى الصليب على ما يبدو (شكل ١٠).

نلاحظ من هذه الأصول الثلاثة أنّ الأشكال تشير أساسًا إلى المسيح. وإذا أثير موضوع الصليب عرضًا، فإنّه يخلو من مشاهد الألم والذلّ. وقد انتشر الصليب انتشارًا واسعًا بالأقاليم التي تمتعت فيها المسيحية بالحرية الكاملة. ففي أرمينيا، خرّب المسيحيون هياكل الأوثان ونصبوا مكانها صلباتًا حجرية ضخمة. أمّا المصلوب، فلا نجده ممثلًا في القرون الثلاثة الأولى إلّا على ثلاث قطع صغيرة.

أ - يَنسب أحمر صغير جدًا اكتُشف في غزّة ويعود تاريخه إلى القرن الثاني أو الثالث الميلاديّ (شكل ١١). يمثّل النقش مصلوبًا عاريًا ويجانبه شخصان بوضعيتين متشابهتين. ويقول الأستاذ لو بلان Le Blanc إنّ الرسم غنوصيّ بازليديّ: بما أنّهم لا يؤمنون بصلب المسيح الكلمة، فإنّهم يصوِّرون الصلب بدون حرج. لكنّ الأستاذ لوكليير Leclercq شكك في صحة هذه النظرية^(١٨). من جهتنا، يمكننا أن نبدي ملاحظتين: أولاً، لا نستطيع أن نعرف هل المسيح مصلوب أو يفتح ذراعيه داعيًا الناس إليه، من أحياء - الشخص اللابس - وموتى - الشخص العاريّ - . ثانيًا، لم يوضع على هالة المسيح صليب إلّا في زمن متأخر، مما يجعلنا نشكك في تاريخ القطعة.

ب - حجر عقيق من القرن الثاني أو الثالث اكتُشف في رومانيا (شكل ١٢). يمكن التعرف إلى يسوع من كلمة IXΘYC المكتوبة بالعكس، ممّا يُشير إلى أنّ القطعة استعملت ختمًا. المسيح عاريّ، وحجمه أكبر من الرسل الاثني عشر حوله. ذراعه ممدودتان على الحرف I، ولا

Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie (D.A.C.L.), t. III, col. (١٨)

يحمل علامات الألم أو الإهانة. ويعتبر جسمه المشدود عن عظمة المخلص.

ج - حجر عقيق من القرن الثالث عليه رسم مشابه وفيه بعض الاختلاف (شكل ١٣). المسيح من حجم تلاميذه لكنه أعلى منهم، ويتميز عنهم بالهالة على رأسه، وفي الوسط عبارة يسوع المسيح EHCOC XPECTOC معكوسة. وحمل في الأسفل يذکر بالذبيحة.

نجد في هذه الأمثلة أنّ المصلوب صُور في حالة المجد، بدون آثار للألم أو الإهانة. ويُشير قاموس العاديات المسيحية إلى قطع أخرى تحمل رسوم صلبان، لكن أشكالها البسيطة وعدم تناسبها مع النقش يجعلنا نعتقد بأنّها أضيفت لاحقًا ولا يمكننا الاعتماد عليها في دراستنا.

السلام القسطنطيني

بدأ عيد السلام في كنيسة الإمبراطورية البيزنطية أيام قسطنطين الملك. وقد حدث في ذلك الوقت ثلاثة أمور ساهمت في انتشار رسم الصليب، وجعله رمزًا للمسيحيين.

١ - في كتاب حياة قسطنطين *Vita Constantini* التي كتبها أوسابيوس Eusèbe في السنة ٣٤٠، نجد الرواية التالية: في ٣١٢ للميلاد، انطلق الإمبراطور إلى محاربة مكسانس Maxence وسأل الله النصر. وعند الغسق، ظهر فوق النجم الأول صليب من نور وعبارة: «بهذه العلامة تتصر In Hoc Signo Vinces» فاستولى الدهش على قسطنطين وجنوده، لكنهم لم يفهموا معنى ذلك. وفي الليل، ظهر المسيح للإمبراطور في الحلم مع العلامة نفسها، وأمره بأن يجعلها شعاره العسكري، وأن يحملها في معاركه فينال منها الحماية (شكل ١٤). وفي يوم ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ٣١٢، انتصر قسطنطين على عدوه ودخل روما ظافرًا. وأمر بأن يوضع الصليب في كل مكان، وتحت عبارة تذكّر الرومانيين بأنهم تحرّروا من نير الطغيان بهذه العلامة.

٢ - في ذلك الوقت أيضًا تم اكتشاف صليب يسوع في اورشليم. ويُقال إن هذا الاكتشاف تم بفضل الملكة هيلانة، أم قسطنطين، في أثناء حجها إلى الأراضي المقدسة. ولا ندري هل الاكتشاف وما يُروى عنه صحيح، لكن إكرام الصليب ظهر وبدأ يتشر في ذلك الوقت.

٣ - ألغى الأباطور قسطنطين الإعدام بالصلب، ولم يُعده ملك آخر بعده. نيت الأجيال اللاحقة ما يعنيه الصلب من ذل وإهانة، ولم تحتفظ إلا بالسيرة الإنجيلية. فلم يعد الصليب يعني إلا المسيح الذي مات لأجل خلاص البشر.

الصلب بعد الملك قسطنطين

يخبرنا أوسابيوس Eusebe بأن قسطنطين أمر بعد الحلم بأن يكتب اسم المسيح على الدروع والرايات. وتبين الأبحاث الأثرية أن قسطنطين استعمل الحرفين الأولين لكلمة يسوع اليونانية، وجعلهما متطابقين ليشكلا ما سمي صليب القديس أندراوس كما ذكرنا أعلاه. أما العبارة المرافقة فهي I.H.S.V. أي الأحرف الأولى لجملة: «بهذه العلامة تقتصر In Hoc Signo Vinctes». ووضع الحرف V تحت في الوسط، وعلا منتصف الحرف H صليب صغير، فصار الشكل بكامله صليبا أيضًا. ومع الزمن، نسي الناس معنى هذا، وحبوا أن الحرف V سماران، فأضافوا ثالثًا وجعلوا يقولون إن معنى الحروف الثلاثة هو: «يسوع مخلص الناس Jesus Hominum Salvator» (شكل ١٥).

تخلعت المسيحية من وطأة الاضطهاد في عهد الإمبراطور قسطنطين، وصارت الكنائس والكاتدرائيات تُشاد في كل مكان. وظهير الصليب في النيفاء والرسوم الجدارية ليشير تارة إلى النصر وتارة أخرى إلى المسيح نفسه. وفي كنية بودانتيانا Pudentiana بروما نيفاء من القرن الرابع يظهر فيها المسيح جالسًا على عرش إمبراطوري وبجواره كبار المدافعين عن الإيمان المسيحي. وفي الجزء العلوي من اللوحة

صليب مرضع يساوي طوله طول المسيح، يعلو هضبة تذكّرنا بالجلجثة أو جبل طابور، وتحيط به كاثناتُ سفر الرؤيا: الملاك والأسد والثور والنسر، إشارة إلى الإنجيليين الأربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا. ونُقش على كثير من القبور الحجرية درب الصليب بطريقة تختلف عما تعودنا رؤيته في أيامنا (شكل ١٦). فالمشهد البيئي يصوّر المسيح واقفاً بوقار أمام بنطيوس بيلاطس، ويُشير إليه بيده كَمَن له سلطان عليه، بينما يُدير الحاكم الرومانيّ رأسه خجلاً كالمتهّم أمام ديانته. ويصوّر المشهد الياريّ سمعان القيرينيّ يحمل صليب المسيح كما يحمل العسكريّ سلاحه، وجنديّ يضع على رأس يسوع إكليل غار لا إكليل شوك. وفي الوسط، بدل مشهد الصلب، نُقش صليب فارغ يعلوه اختصار اسم المسيح، يحيط به إكليل من الغار يحمله نسران إمبراطوريّان. وتحت الصليب جنديّان واحد نائم والآخر دهش لما يراه. إنّ هذا المشهد يعبر عن تقليد للجيش الرومانيّ. فمن عادة الجنود أن يضعوا نصباً تذكاريّاً يعلّقون عليه أسلحة العدرّ في المكان الذي بدأ فيه يتقهقر. وقد احتفظت بعض الليتورجيات بهذه العادة، واستعملت صلباناً علّقت عليها أدوات تعذيب يسوع: الوسط والحربة والماسير... إنّ مشهد درب الصليب المنقوش على قنور القرن الرابع والخامس لا تروي سيرة الآلام بل مسيرة انتصار المسيح على الشرّ والموت.

نستنتج من هذه الآثار وغيرها أنّ المسيحيّين اعتبروا الصليب علامة انتصار. فصوّروه مرضعاً، خاليّاً من المصلوب، ووضعوه في بعض الأحيان مكان المسيح، وأحاطوه بالعظمة والجلال. لذلك نراه تارة على عرش، وتارة وسط السحاب، ترافقه في بعض الأحيان عبارة IXΘYC أو حرفي ω α أي الألف والياء، كما ورد في سفر الرؤيا (١ : ٨).

المصلوب

عارض المسيحيّون في الشرق والغرب رسم يسوع مصلوباً معارضةً شديدة. ودام ذلك حتّى أيام محنة تحطيم الأيقونات. ففي القرن السابع

أعلن سيرينوس Sérénus أسقف مرسيليا: «إن رسم الصليب إهانة للآلام ونهتكم على موت المسيح». وانتقد الذين يكرّمون صور الصليب، واتّهمهم بأنهم ينكرون القيامة ولا يرون المخلص إلا في «آلامه وموته في لحظة عذابه». وقد رأينا كيف مثل القدماء درب الصليب على القبر الحجري، وكيف نقشوا صليب النصر مكان مشهد الصليب. لهذا، فإنّ المباني التي تحمل صورة المصلوب-نادرة جدًا في القرون المسيحية السّنة الأولى.

إنّ أوّل تمثيل للصليب يعود تاريخه إلى القرن الخامس الميلاديّ. وهو نقش على الباب الخشبيّ في كنيسة القديسة ساين (شكل ١٧). وإذا أمعنا النظر في المصلوب، لا نلاحظ علامات الألم بادية عليه. إنّه انتصار الحياة على الموت. فالجسد منتصب والعينان مفتوحتان، وحجم جسمه أكبر من حجم اللّصين المصلوبين معه، إشارة إلى النّسب في الأهيّة. وهناك نقش آخر من تلك المدة موجود على علبه عاجية (شكل ١٨)، نرى فيه عيني يسوع مفتوحتين، ورأسه مرفوع، ولا أثر للذلّ أو الألم. وبدلًا الجنديّ الرومانيّ. رُسم يهوديّ في يده حربة، لأنّ المسيح صُلب بسبب اليهود. ونجد في يسار الصورة يهوذا مشنوقًا وحده، لا أحد يعيره اهتمامًا، عيناه مغلقتان وكيس النقود الذي أخذه لقاء خيانه مقلوب. لقد أراد موت معلّمه فمات هو.

من جميع هذه الأمثلة نستنتج أنّ الصليب دلّ في بداية استعماله إلى النصر. وهذا ما يبدو من الرسوم والمنحوتات، حيث يشغل المكانة المرموقة، أو من تمثيل المصلوب منتصرًا وهو على الصليب. والسبب في ذلك هو أنّ ثقافة العصر كانت ذات طابع عسكريّ. ففي المعركة لا يهتمّ الناس إلاّ بالنتيجة، ولا يكثرثون لعدد الضحايا.

الخاتمة

لا بدّ لنا من التنازل بعد هذا العرض السريع لتاريخ الصليب والصليب: متى ظهرت صور المصلوب وهو في ذروة الألم؟ وما سبب ظهورها؟

إذا تبّعنا تاريخ الفنّ المسيحيّ نلاحظ أنّ أوّل تمثيل للمسيح المتألّم تمّ في القرن التاسع. لكنّ السكينة ظلّت باقية عليه، وعضلات بطنه تُشير إلى جيروته. واستبدل الرشح الليتورجيّ بثوب بسيط. وشيئًا فشيئًا، بدأ رأس يسوع ينحني، وجسمه يسقط إلى الأسفل ويأخذ شكل حرف S. ولم يوضع إكليل الشوك على رأسه إلاّ في القرن الثالث عشر، بتأثير من الروحانيّة الفرنسيّة التي تميل إلى تأمل آلام المخلّص. وفي القرنين الرابع والخامس عشر، بالغ الفنّانون في إظهار العذابات والألم. وصار المصلوب يحمل علامات كوارث الزمن، فنرى جسمه مغفّى بقروح الطاعون، أو بطعنات الحروب، أو بآثار الأوبئة التي أودت بحياة الناس. وفي نهاية القرن الخامس عشر، ظهرت صور التنزيل عن الصليب، والجلد، والثالوث إذ يحمل الأب ابنه ميتًا، وزال موضوع المسيح القائم المتصر على الموت.

وفي القرن السابع عشر، عادت صورة المصلوب الشديّد البنية إلى الظهور، لكنّها سرعان ما اختفت في القرن الثامن عشر وحلّت مكانها تعابير الذلّ والألم، التي بلغت أوجها في القرن التاسع عشر. ولا نستطيع أن نقول شيئًا عن القرن العشرين، لأننا لا زلنا نعيش فيه، ولأنّ تطوّر الفنّ يتمّ بسرعة كبيرة جدًّا، فتتوّع أنماط الرسوم والمنحوتات، وتعرّس عمليّة حصرها.



شكل (٢)

رسم ساخر من قصر البلاطينو (القرن الثالث)

D.A.C.L., t III, col. 3051



شكل (١)

عقيق (القرن الثاني) مساحته ١
يحتوي أهم سبعة رموز في العصر
سحي الأول: المرساة، السمكة،
س، الحمام، الراعي، الحرف T،
نقطة.

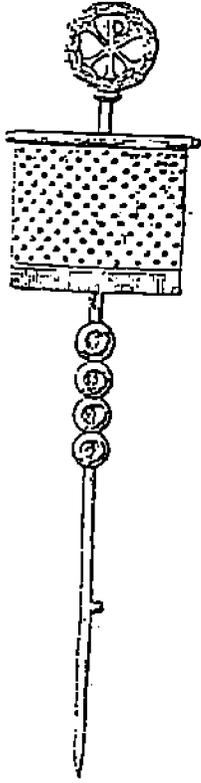
Abbé Martigny, Dictionnaire d'Épigraphie Chrétienne, p. 751



شكل (٣)

آشور ناصربال، الملك الآشوري، يلبس عتقًا إحدى جواهره
على شكل صليب.

Dictionnaire de la Bible, t. I, col 1127



شكل (١٤)

راية عسكرية أيام تـسـنـطـين.

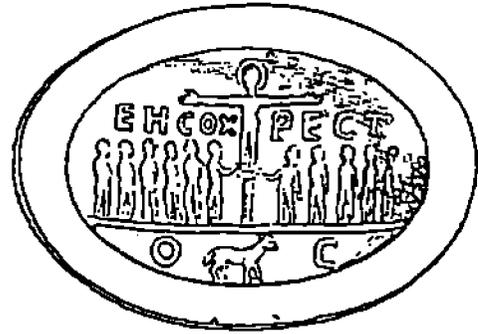
D.A.C.L., t. VIII, col. 953



شكل (١٢)

حجر عقيق (القرن الثاني؟)

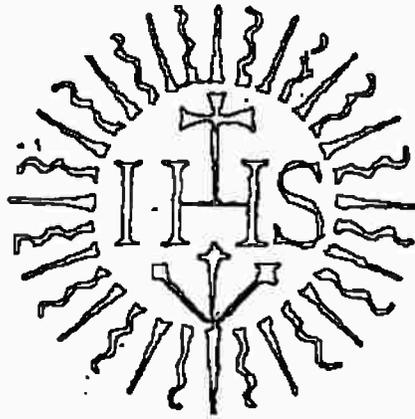
D.A.C.L., t. III, col. 3050



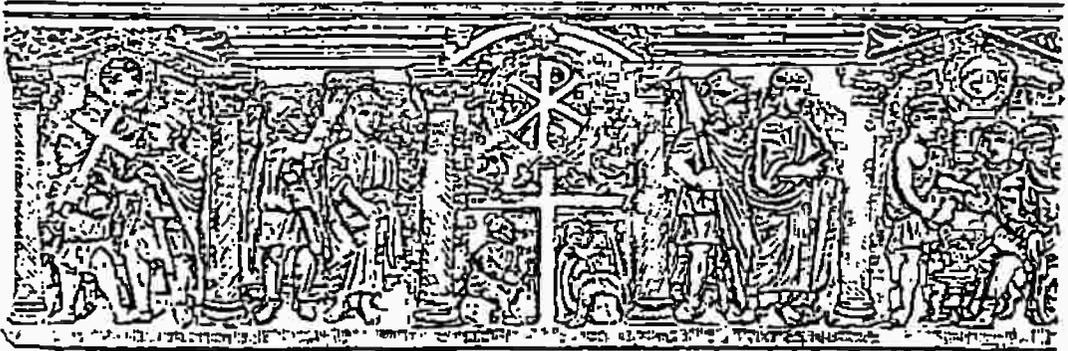
شكل (١٣)

حجر عقيق (القرن الثالث)

D.A.C.L., t. III, col. 3050

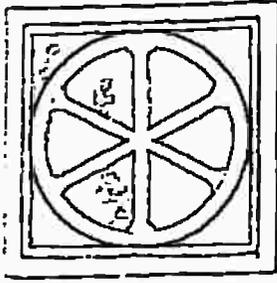


شكل (١٥)
عبارة الملك قسطنطين المختصرة كما هي في
أيقونتها.



شكل (١٦)
درب الصليب منقوش على تابوت حجري.

D.A.C.L., t. VIII, col. 957

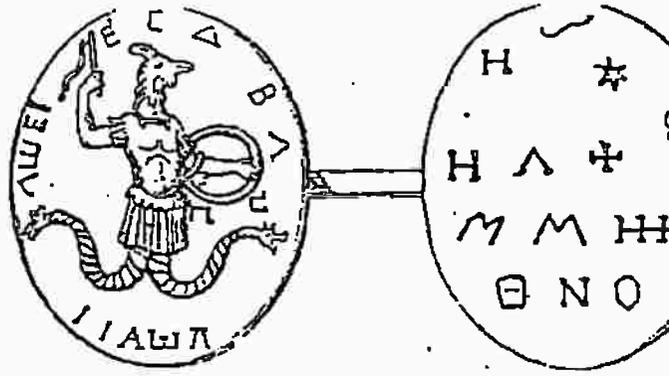


شكل (٥)

صليب يوتاني نجمي (القرن الرابع)
تسالونيقيا.

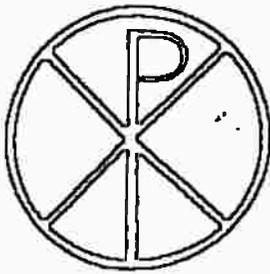
Dictionnaire des Symboles, p.

7



شكل (٤)

ذات رأس ديك. تبدو علامة الصليب واضحة في الكتابة السحرية.
Abbé Martigny, Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne, P. 7

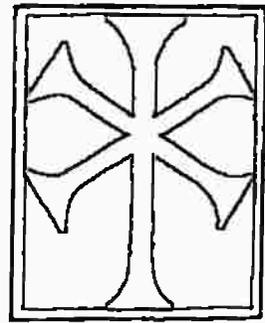


شكل (٧)

أول حرفين من اسم المسيح X و P
(القرن الثاني).

Dictionnaire des Symboles, p.

321



شكل (٦)

ف X و I بشكل صليب (القرن
الرابع) تسالونيقيا.

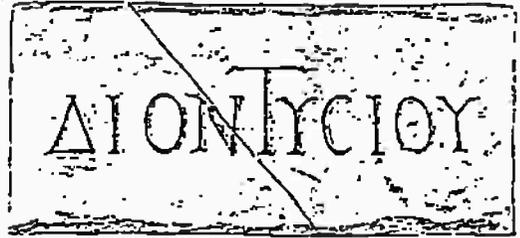
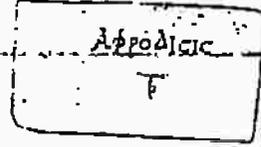
Dictionnaire des Symboles,

321



شكل (١٠)
عقيق أحمر مساحته ٢ سم ٢. وُضِعَ
على المرصاة صليبية الشكل
سمكة.

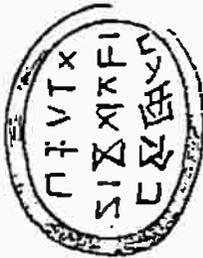
D.A.C.L., t. I, col. 210



شكل (٨)

شواهد قبور من القرنين الثاني والثالث يبرز فيها الحرف T.

I.C.L., col. 3053

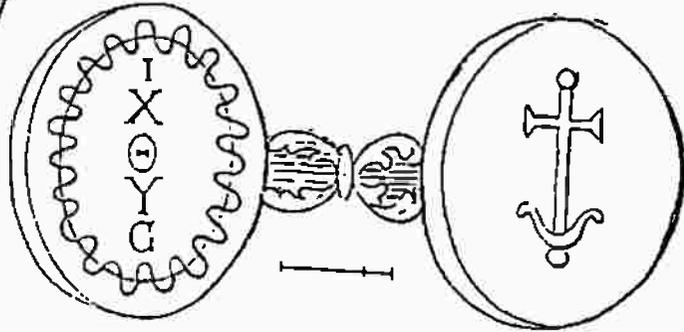


شكل (١١)

يتقب أحمر وُجِدَ في غزوة

(القرن الثاني أو الثالث)

D.A.C.L., t. III, col. 3049

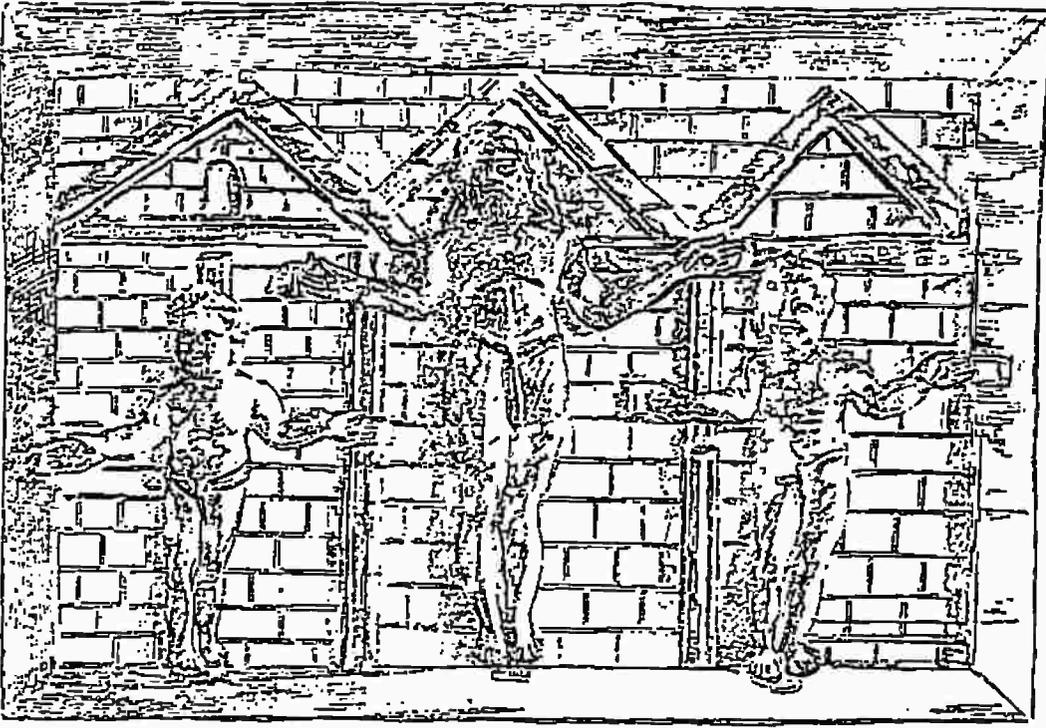


شكل (٩)

حجر عقيق مساحته ٢ سم ٢ يظهر عليه اسم السمكة والمرصاة صليبية الشكل.

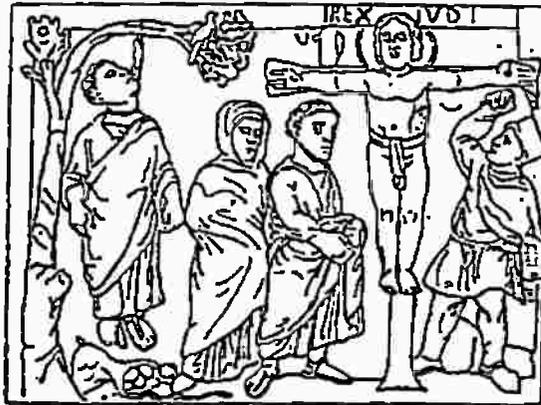
(القرن الثالث)

D.A.C.L., t. III, col. 3053



شكل (١٧)

مشهد الصلب منحوت على باب خشبي
D.A.C.L., t III, col. 3062



شكل (١٨)

موت يهوذا وموت المسيح . عاج من القرن الخامس .
D.A.C.L., t III, col. 1133

